

سلسلة الإصدارات المكتبية المحكمة لـ "شمن"

الإصدار التاسع عشر



عدد 19 - 2011

إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية



# إصابات التفكير والوجدان

1 إصابات تطليلية نفسية حول الفقد والأسد والحزن..

من خلال حالات: (المرض، الاستشفاء، الجراحة، العجز الجسدي، الوفاة...

عند الإنسان منذ الطفولة وحتى الشيخوخة)

إهداء إلى كل من لا يملك

تقديم الكتاب:

يحيى الرفاوي - جمال التركي

## الفهرس

4	الإهداء ..
5	بن يدي الكتيب
9	مقدمة الكتاب
19	مدخل الكتاب
23	القسم الأول..... نظرنا للحياة والمعاني الاجتماعية للمرض
23	الفصل الأول: نظرنا للحياة والمعاني الاجتماعية للمرض
23	طبيعة الحضارة
25	الفصل الثاني: مفاهيم حول المرض
27	الفصل الثالث: المساندة الحضارية للطب المعاصر
32	الفصل الرابع: الحضارة وأدوار المريض والطبيب
33	الفصل الخامس: المراكز الطبية الحديثة وثقافة المشافي
35	القسم الثاني...مشكلات خاصة في الطفولة والمراهقة
36	الفصل الأول: ارتكاس الأطفال لـ: الاستشفاء، الجراحة، العجز الجسدي
36	المرحلة التطورية
38	مقدرة التغلب على المشكلات
39	الشذات النوعية
42	الفصل الثاني: ارتكاس العائلة والكادر الطبي للشدة
42	العائلة
44	الطبيب والطاقم التمريضي
49	القسم الثالث...الفقد و الأسى و الحداد عند الأطفال
49	الفصل الأول: الفقد و الأسى و الحداد عند الأطفال
49	وفاة الجد
51	الفصل الثاني: مراحل الحداد عند الأطفال
54	الفصل الثالث: الهجر والاكساب في المراحل التطورية
55	الفصل الرابع: الحداد المرضي عند الأطفال
58	القسم الرابع... الطفل والمراهق المحتضر
58	الفصل الأول: الطفل والمراهق المحتضر (المنظورات الأخلاقية)
58	الحياة والموت
59	معضلة إخبار الطفل

61	حق الطفل بالمشاركة
61	حق الطفل بالحياة
62	الفصل الثاني: الطفل والمراهق المحتضر (المنظورات السريرية)
62	وفاة الطفل
63	وعي الطفل للوفاة
64	الفصل الثالث: فقدان جزء من الجسم
66	الفصل الرابع: فقدان شقيق
68	الفصل الخامس: فقدان أحد الوالدين
68	الفصل السادس: فقدان زميل
69	الفصل السابع: وفاة المراهق
75	القسم الخامس...الفقد والأسى والحداد عند البالغين
75	الفصل الأول: الأسى والحداد
76	الفصل الثاني: مراحل الحداد والأسى
76	مرحلة الاحتجاج أو الرفض
77	مرحلة التشوش
78	مرحلة إعادة التنظيم
79	الفصل الثالث: الحداد المرضى
82	الفصل الرابع: الطبيب والعملية الحدادية
84	القسم السادس.....البالغ المحتضر
84	الفصل الأول: البالغ المحتضر (منظورات تاريخية)
84	حقيقة الوفاة في فترة ما قبل التاريخ
86	الفصل الثاني: البالغ المحتضر (منظورات دينية)
87	الفصل الثالث: البالغ المحتضر وبدايات الطب المعاصر
89	الفصل الرابع: التطورات المعاصرة للعناية الطبية بالإنسان المحتضر
89	توجهات للتعامل مع المرضى المحتضرين
91	الفصل الخامس: مراحل الاحتضار
91	مرحلة الإنكار
91	مرحلة الغضب
92	مرحلة المساومة
92	مرحلة الاكتئاب
92	مرحلة القبول
93	الفصل السادس: تفرد الاحتضار
95	ملخص: الاحتضار،، الوفاة والفقدان
97	خاتمة

## الإهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَأْنِهِ فَإِذَا نُفِخَ فِي سُرُورٍ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (84) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿85﴾ الإسراء

صَلَّى  
عَلَيْهِمُ  
الْحَقَّ

- إلى ... الحياة التي عشقنا ..
- إلى ... الراحلين في الوجود ...
- إلى ... الخالدين في الذاكرة ..

عبد الرحمن

## بين يدي الكتيب

هناك عدة أسباب تدعوني إلى التحدّث عن الجوانب النفسية لسلوك الإنسان خلال حالات الفقد التي قد يتعرض لها خلال مسيرة حياته منذ الطفولة وحتى الشيخوخة وانتهاء بالوفاة..

فالمراجع العربية في هذا المجال نادرة على فرض وجودها، فمن خلال متابعتي خلال ما يقارب العقدين من الزمن لمعظم ما ينشر باللغة العربية عن العلوم النفسية لم أوفق بالعثور على مرجع في هذا المجال، رغم أهميته البالغة للباحث والمختص في ميدان العلوم النفسية إضافة إلى كل من الطبيب وطالب الطب والتربية والمعلم وقبل كل هؤلاء الأهل والأسرة..

بشكل عام يتظاهر الفقد بعدة مظاهر، فهناك الفقد الحقيقي Real وهو فقد شخص معين ذو أهمية خاصة بالنسبة إلينا. وهناك الفقد المهدد Threatened، وهو ظرف الإنسان الذي يتعامل مع خطورة وفاة شخص هام بالنسبة إليه. وعند الإنسان فقط من بين كل الكائنات يوجد ما يمكن أن ندعوه الفقد الرمزي Symbolic، فليس الفقد هنا لإنسان بل لاعتقاد أو فكرة أو طريقة حياة أو حتى لبلد. وهناك أيضاً ما يمكن أن ندعوه الفقد الخيالي Fantasied إذ يتعامل الأشخاص كما لو أن هناك فقداً مع أنه لا يوجد سبب واضح لهذا الاعتقاد.

سبق أن تحدثت في كتابي "كيف نفهم الطفل والمراهق" عن تطور الكائن البشري من الولادة وحتى المراهقة ورأينا كثرة أنواع الفقد والحرمان التي تفرضها الظروف التطورية المختلفة: فقد الطفل لوحده مع أمه، وفقد الطفل الدارج لصورة أمه المهمة بشؤونه، ونلاحظ فيما بعد فقد متوسط السن والمتقدم في السن للشباب والصحة الجسدية. وفي الحقيقة، يمكن أن نعتبر كل دورة الحياة من الولادة إلى الوفاة، كتغيرات في موضوع الحرمان والفردية والفقد..

إضافة لهذه الحرمانات الأساسية المتعلقة بالنمو والتطور، هناك حرمانات أقل توقعاً مثل الحرمان غير العكوس لوفاة شخص مهم، يمكن للشخص أن يختبر فقداً دائماً في ظروف الطلاق أو أي نوع من الافتراق يصبح بُعد الشخص فيه طويلاً. وقد يشعر الإنسان بتغير في علاقات الحب، فزوجة كانت معتادة على حب زوجها لها وإظهار هذا الحب، سوف تشعر بنوع من الفقد عند انشغاله بعمله.

ونوع كبير من الفقد لأي شخص هو عند تعرضه لمرض جسدي. وبالطبع فإن عمليات البتر أو أي عمليات أخرى فيها ضياع لأقسام من الجسم هي مصدر كبير لشعورنا بالفقد. وقد يشعر الإنسان بالفقد عند اضطراب عمل أي عضو من الأعضاء، أو اضطراب كلي كما يحدث في سن اليأس عند المرأة.

إن أي مرض عضوي يعطي بعض الفقد للآلية الصحية للفرد، فهذا يبدو صحيحاً تماماً في الأمراض المزمنة حيث يشكل العلاج أيضاً نوعاً من الفقد. مثال ذلك، شخص عنده داء قلبي رئوي سيطلب منه تحديد نشاطه، ولكن بتقدم الجراحة القلبية وإمكان إجراء العمل سيعود إلى الشخص استطاعته القيام بحيويته الكاملة تقريباً، وعندها سيشعر ببعض الفقد لحياته السابقة المحددة. وعلى الرغم من أنه عاد صحيحاً لكنه يستصعب عودة التلاؤم لطريقته القديمة في معاملة الناس، وهذا قد يشكل تعقيداً أكبر.

هناك أيضاً أنواع أخرى من فقدان تسبب ارتكاس حرمان مثل فقد المركز الاجتماعي، فقد العضوية في تجمع أو جماعة معينة، فقد بيت معين، فقد وظيفة، فقد ممتلكات شخصية معينة. وشهدت حالات حرمان في الأشخاص الذين اضطروا لتطور مدني معين، عندها لم يكتفوا بتغيير سكنهم إلى قسم آخر في المدينة مثلاً، أو تغيير المدينة أو هجرها، ولكن أيضاً افقدوا طريقة حياتهم السابقة. ومن أنواع الفقد المعروفة الدلال. وأكثر من ذلك عديد من الأشخاص أصيبوا بالانزعال والانسحاب الاجتماعي ليس من فقد إنساناً إنما أيضاً قد يكون من فقد حيوانات الأليفة عندهم وشاهدت حالات كثيرة لأناس تعرضوا لارتكاس شديد من الأسى لفقد حيوان أليف أو طائر.

هذا الكتاب لن يتحدث عن كل هذا الكم الهائل من أنواع الفقد الذي يتعرض له الإنسان من لحظة ولادته وحتى وفاته، وإنما سينتظر إلى أهم أنواع الفقد فقط، وهو استجابة لرغبة العديد من الأصدقاء والزلاء وكذلك استجابة لرغبة الكثير من أهالي الأطفال والمراهقين ليتعرفوا كيف يمكنهم تفهم الطفل والمراهق وكيف يمكنهم تفهم الآباء في سنوات الكهولة والشيخوخة من خلال حالات الفقد الرئيسية، وكيف يمكنهم التعامل مع هذه الحالات بأبسر السبل وأفضل الطرق وهذا ما حاولت جاهداً أن أعرضه بأسلوب تحليلي مبسط قدر الإمكان، ولا أنري نصيبي من التوفيق فيما ذهبت إليه.

عرضت في القسم الأول من هذا الكتاب عبر فصوله الأربع نظرتنا للحياة والمعاني الاجتماعية للمرض، من خلال مفهوم المرض ودور الحضارة المعاصرة في مساندة العلوم الطبية، وأدوار كل من الطبيب والمريض وثقافة المشافي والمراكز الطبية الحديثة المنتشرة في عصرنا.

في القسم الثاني من خلال فصليه عرضت ارتكاس الأطفال للمرض والاستشفاء والجراحة والعجز الجسدي وارتكاس العائلة والكادر الطبي للضغوط والشدّة..

في القسم الثالث من خلال فصوله الأربعة عرضت مفهوم الفقد والأسى والحداد عند الأطفال ومراحل الحداد عند الأطفال والهجر والاكْتساب في المراحل التطورية والحداد المرضي عند الأطفال.

كما عرضت في القسم الرابع من خلال فصوله السبعة المنظورات الأخلاقية والمنظورات السريرية للطفل والمراهق المحتضر، وتحدثت عن فقدان جزء من الجسم، وفقدان شقيق، وفقدان أحد الوالدين، وفقدان زميل، وموت المراهق..

أما في القسم الخامس فعرضت من خلال فصوله الفقد والأسى والحداد عند البالغين ومراحل الحداد والأسى الطبيعي والحداد المرضي والطبيب ودوره في الحداد..

في القسم السادس عرضت من خلال فصوله الاحتضار عند البالغ وعرضت لمحة تاريخية دينية إضافة إلى التطورات المعاصرة للعناية الطبية بالمحتضر ومراحل الاحتضار عند البالغ وتفرد تجربة الاحتضار..

وفي الختام عرضت ملخصاً.. ثم ختمت الكتاب بمقاطع مطولة من رسالة أساتذة الطب النفسي الدكتور Thunberg التي شرحت فيها تجربة ارتكاسها من خلال ما عانته نتيجة إصابتها ميلانو كارسينوما..

بقي أن أقول.. لا يمكنني اعتبار هذا الكتاب تأليفاً صرفاً أو إعداداً وتأليفاً أو حتى ترجمة، فالتأليف يجب أن يكون بالمجيء بشيء غير مسبوق، والإعداد والتأليف اعتدت في كتيبي أن يكون على الأقل ما يزيد على نصف الكتاب تأليفاً وما يقل عن النصف الآخر إعداداً، والترجمة هي نقل شيء من لغة إلى لغة أخرى، وهذا الكتاب لا تنطبق عليه أي من تلك الحالات..

لكن فيه من كل ما ذكرت وهو مطعمٌ بخبرتي السريرية ورؤيتي التحليلية وهي مختلفة إلى حد كبير عن الطرق والأساليب التحليلية المتعارف عليها.. لقد حاولت أن أعرض بطريقة وأسلوب مبسطين قدر الإمكان محتواه العلمي، ولكن لا يصل ذلك إلى مستوى التأليف الصرف، وفيه من الإعداد والترجمة، ولكن بطريقة وأسلوب وفق ما وفقت من فهم وخبرة.. وكنتُ مجبراً على الاعتماد بشكل كامل على الأبحاث الأجنبية لأن الأبحاث العربية في هذا المجال لم تزل في مراحلها الأولى على أحسن تقدير.. وبشكل عام هذه الأبحاث جرت في بيئات ومجتمعات ومفاهيم وثقافات جميعها مختلفة عن بيئة مجتمعنا ومفاهيمه وثقافته.. ومع ذلك حرصت بكل ما استطعت على الدقة وعلى الأمانة العلمية وبما لا يسيء للحرافية والمهنية..

إن الكثير من اللوحات الموجودة في متن هذا الكتاب هي للفنانة الألمانية Kätke Kollwitz (1867-1945) هذه اللوحات رغم أنها اعتبرت برأي النقاد إبداعاً فنياً يجلب السعادة لكل من يشاهدها، فإن هذه الرسامة الكبيرة عاشت بؤساً

فظيعاً، إذ قُتِلَ ابنها بيتر في الحرب العالمية الأولى، وعندما وصل هتلر إلى الحكم عام 1933 اعتبرت أعمالها خارجة على القانون من قِبَل النازيين، وأجبرت على التقاعد من أكاديمية الفنون البروسية، وسُحِبَت أعمالها من كل المتاحف الألمانية، وهددت بالسجن من قِبَل الغستابو وكذلك زوجها الطبيب كارل كولفيتس الذي كرس حياته للاهتمام بالفقراء، مات زوجها في الحرب العالمية الثانية، وقتل حفيدها على الجبهة الروسية، وتهدم منزلها في برلين، وفي النهاية كانت مستعدة لنداء الموت وهي لוחتها الأخيرة التي رسمتها عام 1935 وانتهت منها عام 1945 وهي بعمر 78 عاماً.

بإنجاز هذا العمل تتحد الخطوط البسيطة بتناغم وتجانس لتشكل لوحة تضج بالحياة، إنَّ عملي المتواضع هذا... ينبوعٌ تعانقت فيه قطرات صغيرة من جهود غالية حتى أخرجته إلى النور.. فالورد والياسمين لكل من له يد بيضاء في عملي هذا، ولكل من شاركني جهده.. ولكل العيون التي راقبتني.. وانتظرتني بحب...

كل الشكر والامتنان لعملاق الطب النفسي، أستاذ الأجيال وعميد الطب النفسي العربي البروفيسور يحيى الرخاوي (مصر) هذا العالم المبدع والمفكر والأديب والشاعر الكبير.. وقيل كل ذلك.. الطبيب الإنسان... الذي شرفني - رغم العمل الهائل بين يديه وضيق وقته- بتوشيح كتابي هذا بمقدمة أعتز وأقدر وأحترم كل ما جاء فيها..

وإنني ممنن للصديق العزيز المفكر أ.د. جمال التركي (تونس) مؤسس شبكة العلوم النفسية العربية ورئيسها.. هذه الشبكة التي قلت عنها سابقاً إنها غدت أكاديمية شاملة في العلوم النفسية قدمت لعلماء النفس العرب وأطبائهم مالم تقدمه أي جامعة.. وأقول الآن إن جمال التركي وحده غدا أكاديمية جامعة..

هذا الرجل يعمل بصمت.. ويعود الفضل إليه بإنشاء أضخم بوابة شاملة للعلوم النفسية الأكاديمية على الانترنت.. وحقق التواصل السريع لأول مرة عبر التاريخ بين علماء النفس العرب وأطبائهم ووضع أحدث الأبحاث بين أيديهم.. إضافة إلى إنجازه معجم الشبكة العربية للعلوم النفسية الذي يضم 112000 مصطلح نفسي بثلاث لغات (العربية، الانكليزية، الفرنسية) وهذا يفوق 5000 صفحة ورقية.

في الختام أقول: علينا ألا ننسى أن الحياة جميلة، ولكنها كثيية في الوقت نفسه، فكلنا مفروض عليه أن يفقد من يحبهم سواء بوفاتهم أو وفاتنا، وعبر كل القرون لاحظ العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء والفنانون وغيرهم هذه الحقيقة المرة للوجود الإنساني.. لكن على الأطباء دون الناس جميعاً بحكم مهنتهم تجاوز هذه المقولة في أحداث وجودهم اليومي وممارستهم المهنية، ومن ثم عليهم أن يستطيعوا ابتكار القدرة على مسح نهاية الحياة المطلقة مع أي مريض.

كلي أمل أن أكون قد وفقت لتقديم ما هو جدير بالزمن الذي سيبدد أثناء قراءة هذا الكتاب.

## مقدمة الكتاب : بروفييسور يحيى الرضاوي

هذا كتاب جيد، كتبه مؤلفه العالم الفاضل، باللغة العربية، من واقع ثقافتنا الخاصة، لعنا نذكر معه أننا نفرح بالعربية، ونحزن بالعربية، ونحب بالعربية، ونمرض بالعربية، ونشفى بالعربية، ونغضب بالعربية، إن أية محاولة لتشكيل عقولنا وثقافتنا ووعينا الجمعي والفردى بلغة غير لغتنا هي إغارة خطيرة تحول دون إسهامنا بما يمكن أن نبذعه من واقعنا، نتكامل به مع وعى وعقول غيرنا من البشر عبر العالم.

اللغة مثل الدين هي البنية الأساسية لأية ثقافة عبر التاريخ، ونحن لا نستطيع أن نضيف ما هو أصيل إلا انطلاقاً من ثقافتنا وهي تتحاور مع كل اللغات والثقافات القابلة للحوار، والقادرة عليه، وهذا الكتاب يعن بعض ذلك.

هو كتاب جيد يعدُّ بكتب كثيرة لاحقة للمؤلف الفاضل، أو لمن يستلهم بداياته، ممن يحملون همَّ تعريفنا بما هو نحن، مستعملين لغتنا نحن، من خلال خبرات هذا التخصص (الطب النفسى) وهو يلامس ثقافتنا طول الوقت، رضينا أم لم نرض.

وهو كتاب صغير نوعاً استقبله باعتباره فهرساً لكتب كثيرة قادمة، للمؤلف، نحن فى أمس الحاجة إليها، وبلغتنا العربية، الكتاب طموح وعنوانه يظلم محتواه، وأيضاً يعدُّ بأكثر مما يرد بين دفتيه، وقد امتد ما بين مرارة الحزن إلى تجليات الفقد والأسى، وهي أبعاد تتداخل أحياناً لكنها ليست مترادفة. الموضوع شديد الأهمية، مترامى الأطراف، ويحتاج لمزيد من البحث والاستشهاد بالحاضر مضافاً إليه زيارات انتقائية إلى التراث، وهو مقسم إلى أقسام، لا أعرف لماذا ليست فصولاً أو أبواباً، ربما لأن كل قسم يعدُّ بكتاب بأكمله فى المستقبل القريب بإذن الله؟

القسم الأول عام شديد العمومية حيث يتناول " نظرتنا للحياة، ومعنى المرض والمفاهيم المتنوعة حوله"، وهو يعرج إلى أدوار الطبيب وثقافة المشافى، ومفهوم المرض ومفهوم العلاج بشكل مركز أشد التركيز فى حدود ضرورة التقديم .

أما القسم الثاني فهو دراسة واعدة تعرض لعناصر النمو حتى المراهقة ، ثم يستطرد ليشير إلى الكادر الطبى والشدة، ثم يتطرق إلى الحزن والفقد فى هذه المرحلة بشكل متواضع وغير مباشر.

فإذا وصلنا إلى القسم الثالث بدأ عرض جوهر الكتاب عن الفقد والأسى والحداد أكثر وضوحا وتحديدا ، مدعما بحالات إكلينيكية واضحة ومفيدة.

ثم نجد أنفسنا فى وسط العائلة كشبية متداخلة متفاعلة، يعرض الكتاب لارتباكها بالفقد والحزن اقترابا وتهديدا وفعلا، وعلاقة ذلك بالكادر الطبى: الطبيب والتمريض، فيمثل هذا القسم الخطوط العريضة لمشروع كتابين آخرين على هامش عنوان هذا الكتاب.

ويختتم المؤلف النصف الأول من الكتاب بقسم أكثر تحديدا فيما يتعلق بالفقد والأسى، والحداد وهو أقرب الأقسام إلى العنوان، لكنه يبدأ فى رحاب مرحلة الطفولة، ليكن، فهو يعود يتناول نفس القضية عند الناضجين وكبار السن فى القسم الخامس "الفقد والأسى والحداد عند البالغين"،

وقد لاحظت بصفة عامة أن طموح المؤلف وهو يرغب فى توصيل أكبر قدر من المعلومات عن مواضيع كثيرة معا ، فى هذا الحيز الصغير، قد اضطره إلى كل هذا الاستطراد المتشعب.

وقد تناول الكتاب أيضا قضية الاحتضار وما يحيط به عند المريض وذوية عند الصغار (القسم الرابع والسادس)، وهذا بعد آخر يلامس الفكرة المحورية، وإن كان يحتاج إلى أن يرتبط بثقافتنا بشكل متميز نظرا لأن هذه المنطقة هى من المناطق التى تختلف فيها الثقافات اختلافا بينا، وفى هذا الصدد يجمع هذا الجزء من الكتاب بين تقديم معالم نفسية المريض فى هذه "المرحلة النهائية" من الحياة، وبين نفسية من يحيط بالمريض من ذويه قرب، وبعد، النهاية، وهما بعدان مختلفان بشكل ما.

إن تناول طبيعة الموت ومعناه، باللغة العربية، فى ثقافة منغرسه تاريخا وحاضرا فى أشكال وتجليات متنوعة من التدين والتصوف والإيمان: يحتاج إلى الغوص فى بحث الاختلافات الجوهرية والفلسفية والنفسية والطبية من منطلق هذه الثقافة بشكل أعمق، وقد تناول الكاتب هذا البعد بشكل شديد الإيجاز لدرجة تعد بالمزيد وتحفز إلى انتظار عمل مستقل جامع. الموت فى ثقافتنا له معان كثيرة متداخلة تكمل بعضها بعضا، ولكن يتفق أغلبها فى أنه عندنا يمثل حقيقة ما هو "انتقال مفتوح" أكثر منه "نهاية مغلقة"، فهو انتقال من الوعي الشخصى إلى الوعي الكونى، (متون هرمس) أو انتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة (الأديان السماوية) أو انتقال من مرحلة نمو محدودة إلى مرحلة نمو ممتدة "إعادة ولادة": (كاتب هذه المقدمة)، كل ذلك يجعل هذه الخبرة مختلفة تماما فى ثقافتنا

عنها في ثقافات أخرى تعامل الموت باعتباره عدما خالص، أو فقدا كاملا، أو نهاية مغلقة، ولعل عذر المؤلف أنه لم يخصص كتابه كله لهذا الموضوع تحديدا لكن ما وصلني من العنوان، ومن أغلب الأقسام أثار عندي أملا حقيقيا أن يتناول المؤلف في عمل لاحق هذه الفروق الثقافية الشديدة الأهمية، ومدى تأثيرها على المحتضر وعلى الأهل كباراً وصغاراً بدرجات مختلفة، وتفاعلات متنوعة، فشتان بين نقلة وعى، أو نقلة حياة يعلنها حدث الموت كما يتجلى في ثقافتنا وتديننا ولغتنا، وبين تناول نفس المفهوم - الموت - باعتباره نهاية وفقد عمى مغلق.

خلاصة القول: إنه كتاب جيد، ظلم عنوانه محتواه، ففاض محتواه عن وعود عنوانه.

ثم أنتقل بملاحظة عابرة على العنوان الذى يبدأ تحديداً بتساؤل جذاب: "كيف نفهم؟" نفهم ماذا؟ "فهم الفقد ومرارة الحزن والأسى"، فى رأى أننا يمكننا أن نحاول أن نفهم الفقد، لكن أن نعطف على ذلك دعوة أيضا لفهم "مرارة الحزن والأسى" فهذا ما وجدت نفسى أتحفظ عليه. إنك يمكن أن "تفهم" الفقد، والغياب، أما أن تفهم المرارة فهذا بعد واحد غير كاف غالبا، فنحن نعايش مرارة الحزن ونستلهمها من تجليات الوجدانات المرتبطة بها أكثر من أننا نفهمها، وهذا يحتاج مع الخبرة والتمثل والنقص الرجوع إلى لغتنا القادرة المحيطة، نحن نعيش الحزن، وقد نعرفه، ولكننا حين نفهمه أو نحاول أن نفهمه أساسا أو تماما بالعقل والحسابات قد يتسرب منا ويختنق فى تشكيله الرمزي، ومنطوقه الشائع. الحزن أعمق وأخطر وأجمل من أن نفهمه، والمصيبة التى حلت بنا أننا استبعدنا بالتدرج لفظ الحزن (الذى لم أجد له مقابلا جامعا مانعا فى اللغة الإنجليزية)، لنحِل محله لفظ "الاكتئاب" ثم نتجلى الكارثة أكثر حين يحل محل هذا اللفظ

أيضا (الاكتئاب) لفظ معرب هو "دبرشن"، وبرغم أنه لا وجود للباء الثقيلة P فى اللغة العربية أصلا، ولا حتى فيما أعرف من اللغات العامية (العربية) المختلفة، إلى أن أغلب المرضى والأسوياء يستعملون كلمة "دبرشن" أو "دبرسيون" محل الحزن بصوره العظيمة الغائرة والكاشفة، وأيضا بصوره السلبية اللزجة الطفيلية النعابة، وهما صورتان متضادتان، فتختلط الأمور وتتداخل المشاعر التى تميز ثقافتنا فى ثنايا هذه الأصوات المستوردة، والرموز اللاتينية المعربة.

وقد سبق أن تناولت هذه القضية فى تحذيرى من مخاطر هذا التسحب المغير على ثقافتنا ومشاعرنا من خلال تشكيل وعينا بلغة هجين، قادمة من ثقافة مستوردة، وذلك فى أطروحتى عن "مخاطر الترجمة بين تسطيح الوعى واختزال المعرفة" التى يمكن الرجوع إليها فى موقعها.

## وبعد

فإني إذ أشكر المؤلف العالم الإكلينيكي الجاد والحاظ خبرة وإحاطة، أستسمحه في هذه المقدمة أن أقدم بعض اجتهاداتي في استلهاهم لغتي: أتعرّف من خلالها على ما هو "حزن"، وإلى درجة أقل، ما هو "همّ"، لعلمي بذلك فكرتي عن علاقة اللغة، والشعر خاصة، بأصول الظاهرة الوجدانية في ثقافتنا المتميزة، مما يؤثر حتماً في مجمل ثقافتنا، بما في ذلك ممارستنا الإكلينيكية المتميزة، أو التي ينبغي أن تتميز أكثر فأكثر باستمرار.

الحزن - في عمق أصوله - هو جزء لا يتجزأ من طبيعة الوجود البشري: مواجهة دفدعا، وهو ليس بالضرورة ضد الفرح، لكن ما شاع عن بديله المسمى "اكتئاب" جعله كذلك، الحزن هو لفظ آخر له مضمون أشمل، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار تنوعياته التشكيلية. إن أصوله تتضمن قدراً غير قليل من إحياءات الجدية والخشونة والدفع بحيث يصعب فصل هذه الإحياءات عن متضمنه العاطفي (الانفعالي)، فالحزن أيضاً - ضد السهل المنبسط، حزن المكان حزناً: حشن وغلظ، والحزن: ما غلظ من الأرض، والحزن فيه مواجهة وعناد ولقاء وشدة

**"شيخٌ إذا ما لبسَ الدرعَ حرنَ سهلٍ لمن ساهلَ حزنٌ للحزنُ"**

إذن، فاللغة العربية تعلمنا ألا نربط ما هو حزن بما هو : كسرة، أو هــكـة، بل تمتد بنا إلى مضامين أخرى لنفس الكلمة تشمل الحفز والمواجهة والعناد والقوة.

وبالرجوع إلى لفظ Depression في اللغة الإنجليزية (الوصية الأولى على وجودنا المستعار) نجد أن هذا اللفظ الإنجليزي إنما يفيد أساساً ذلك الغم المنكسر الهابط في أضعف تشكيلاته، وهو مرتبط بـ "الهبوط" في شكله العياني غالباً، ولعل هذا هو ما دعا أستاذنا المرحوم الدكتور عبد العزيز القوصي أن يقترح ترجمة هذا اللفظ Depression إلى لفظ **"الإنهياط"**، وليس "الاكتئاب".

وفيما يلي بعض مقتطفات من الشعر العربي الحديث خاصة، وهو يتناول الحزن بتشكيلات ينبغي ألا تغيب عن طبيب نفسي ولد عربياً، يستمع إلى مريضه بالعربية، ويعالجه بالعربية، هذه المعاشية للغة هي بداية التعرف على تشكيلات وجداننا في الصحة والمرض، وقد فعلتُ ذلك لأنني اكتشفت أن الأدب العربي، والشعر خاصة، كان مصدر تعرفي على الحزن في ثقافتنا أكثر من فهمي له، وسوف أورد المقتطفات دون تعليق مطول، إلا في حالة قصيدة صلاح عبد الصبور لما حوت من تشكيلات متنوعة دالة تفيدنا في أصل معاشية الحزن بتجلياته الرائعة، بل وتصنيفاته المختلفة : الإيجابية والسلبية، مما هو جدير أن يكمل أو يسبق محاولتنا "فهمه".

أولاً: مقتطفات من قصيدة صلاح عبد الصبور :  
" أغنية إلى الله !!":

### (1) حزني غريب الأبوين

لأنه تكون ابن لحظة مفاجئة

ما مخضتُه بطن

أراه فجأة إذ يمتد وسط ضحكتي

نلاحظ كيف أن الشاعر يبدأ بأن يكتشف في الحزن قدرته على ذلك الحضور المفاجيء، الذي لا ينفي تراكما سابقاً صامتاً، وهو أيضاً في هذا المقطع يعارض ذلك الاستقطاب المعجمي الذي يضع الحزن والفرح على أقصى طرفين متباعدين متضادين، فهو يكتشف حزنه ممتداً وسط ضحكته، ثم يروح يصنف الحزن كما عاشه، (ويعيشه) لاكما فرض عليه (أو استورده)، ولا كما نحاول أن "نفهمه"، وهكذا نلاحظ كيف أن الشعر قادر على إعادة تشكيل الوعي من خلال إعادة تشكيل اللغة، ثم يمضي صلاح يقول:

### (2) لقد بلوت الحزن حين يزحم الهواء بالدخان

فيوقظ الحنين

ويهمني هنا أن نتوقف عند فعل "يوقظ"، وإلى درجة أقل "الحنين"، لما في ذلك من إشارة إلى قدرة الحزن على الحفز والبعث، ثم إلى ارتباطه "بالعلاقة بالآخر"، وكل ذلك يتنافى مع ما يشيع عن قصر فهم ما هو "حزن" (بعد زحف لفظ "الاكتئاب" المصطلحي عليه) على ما هو إعاقة وهبوط هامد،

ثم ينتقل الشاعر إلى حركية الحزن المتحدية الأقوى.

### (3) ثم بلوت الحزن حين يلتوى كأفعوان

فيعصر الفؤاد ثم يخنقه

وبعد لحظة الإسار يعتقه

وهنا يجدر بنا أن نستعيد ما ذهبنا إليه لنؤكد - من واقع لغتنا العربية - هذه القدرة الطاغية التي يتمتع بها الحزن (هذا الحزن) في إغارته المتمكنة على حركية المشاعر.

### (4) ثم بلوت الحزن حينما يفيض جدولا من اللهب

ومن جوف هذه النار المتدفقة (جدولا)... يشرق الجديد نورا بعنا:

### (5) يتجمع في إشراق الغد

وهكذا نلاحظ كيف أنه لأول مرة يستعمل الشاعر لفظ "الكئيب"، في زمن يمضي، دون مواجهة، وفيما يتعلق بما هو "مات"، وكأنه قد التقط ما في لفظ الكآبة من فراغ ساكن، بالمقابلة بما استشعره في الحزن من حركة باعثة، حتى أنه رجحت أن جذور هذا الفرح لم يروها إلا نهر الحزن، فدبت الحياة في الكآبة الممات، كما يلي:

### (6) ثم يمر ليلنا الكئيب

ويشرق النهار باعثاً من الممات

جذور فرحنا الحبيب.

ثم يواصل الشاعر مواجهته للظاهرة في حركتها الجدلية المولدة، فيتبين له بعدا آخر، لعله النقلة بين ما هو حزن، وما هو اكتئاب، حين يعجز الأول أن يبعث، أن يولد، أن يفجر، فلا يعود حزنا، أو هو حزن لم يألفه، لا يعترف به، وكأنه يرفض - معنا - أن يكون هو حزنا الذي يحركنا، فلعله الحزن المفروض علينا شأنها، أو مستوردا، أو مجهضا، أو عنيئا:

### (7) لكن هذا الحزن مسخّ غامضٌ غريبٌ

وبنظرة متأنية فاحصة لجدل الشاعر مع لفظ الحزن وهو يعيش الظاهرة المحتمل أن يحتويها، نجد أنه نجح بدرجة مناسبة في أن يعيد تخليق التراكيب اللغوية المتضفرة، والمتألفة، والمتناقضة، والمتعاقبة، والمتبادلة، بأمانة مغامرة دون أن يركن إلى مضمون سابق ساكن، أو يحبس نفسه في إحياءات مصطلح خامد (مستورد)، أو معجم حامل ميت، وهذا هو الشعر.

وإذا كنت قد اكتشفت مؤخرا (أنا وتلاميذ مدرستي) أن علاج المريض النفسي بالمعنى الحقيقي ليس إلا قراءة نقدية للنص البشري، حيث يشاركنا النص في إعادة تشكيله، فإن قراءة كل نص بشري ينبغي أن تكون بلغته الأولى والأصيلة، وهي خليقة أن نتعرف من خلالها على الظاهرة المرضية، في ثقافة المريض الأصلية، ومن ثم يصح النقد بنفس لغته في عمق ثقافته، فهو العلاج.

ثم إنه يبدو أن مراجعتي للتعرف على الحزن من خلال استلهاماتي من النص البشري (المريض، وشخصي)، قد امتزجت مع استلهامي النص الأدبي نقدا ثم إنشاء (في الشعر خاصة)، حتى هاج بي شعري شخصيا (على تواضعه) فتشكل الحزن لي في قصائد بالفصحى والعامية، أورد منها أولا هاتين القصيدتين القصيرتين لعلهما تفيان بما أريد تقديمه من أن بداية التعرف على ما هو وجدان في ثقافتنا، تنتقل من لغتنا بلا بديل.

القصيدة الأولى :

### حزنى كلمة

-1-

حُزنى كلمة،  
تمحو صَمَتَ الموتِ.  
حزنى أقوى، أظهرُ من شمسِ البهجة.  
حُزنى أصلُ الأشياءِ.

-2-

يغمرُنِي، يغمرُنِي حتَّى أرنية الأنفِ،  
لا أغرقُ،  
لا أسبحُ،  
تتباعِد كلُّ الشيطانِ.  
يتكاثِرُ خدرُ العُربةِ والإنهاكِ.  
أتمسكُ بحبالِ الأنفاسِ المقطوعةِ،  
يحتدُّ الوعي،  
فأخاف.

-3-

يكفيني حرفٌ ضلَّ طريقَ الكلمةِ.  
أجمعُ أطرافَ المعنىِ.  
"لا تمضي،  
لا تقتربي".  
لأصارع موتى وحدى  
- دون غيابك -  
يصرعهُ حزنى الأشهبِ.  
1982/12/8

(لا تعليق: إلا إشارة محدودة إلى أن الذى يصرع الموت وحيدا هو "حزنى أشهب" فى حضور الآخر فى الوعي)

القصيدة الثانية :

### الريح والأحزان

-1-

تتعالى أبواق الإنفاذ المتكاثفة المرعبة الخائفة العجلىِ.  
يتحقرُ حزنٌ أبلجُ؛  
حزن أرحبُ من دائرة الأشياء المنثورة  
الأشياء العاصية النافرة الهيجى،  
حزن أقوى من تشكيل الكلمات،

حزنٌ يصرخُ بكما،  
يشرقُ الماءَ.  
حزنٌ يستوعبُ أبناءَ الحيرةِ  
يجمعُ أطيافَ الفكرةِ،  
يوقدُ نارَ الأحرفِ والكلماتِ.  
حزنٌ أسلسُ من ماءِ الدمعةِ،  
أعتى من لفحِ الجمره.

حزنٌ يحنو، يُدْمى، يُلهمُ، يصرخُ، يُحيي روحاً ميتةً ضجرةً.

1982/5/6

(لا تعليق: إلا إشارة إلى كيف أن الحزن يحيي روحاً ميتةً ضجرةً)

قبأى منطق – بالله عليكم – نبداً "فهمنا" للحزن – حصرياً !! – من ثقافة  
أخرى، بلغة أخرى؟

بل إنى متحيز للغة العامية كذلك، بكل اللهجات، فهي لغة الأم، في حين أن  
الفصحى هي "اللغة الأم"، وكلاهما يساهم في تشكيل وعينا وثقافتنا حتماً،

وقد حضرتني صورة شعرية **للحزن النابع من الرؤية الصادقة، والبصيرة  
الناقدة،** حين صورتُ بالعامية المصرية، بقرة خلعت "الغمى" (غطاء العينين) من  
على عينيها، فرأت الخدعة التي كانت فيها وهي تدور في نفس الدائرة، وقد غطوا  
عيونها حتى تتصور أنها تسير إلى الأمام، وحين ألمتها هذه الرؤية البصيرية  
غمرها ذلك الحزن البقظ، الذي يقابل ما أسميته في تقسيماتي "حزن المواجهة"،  
قلت بالعامية المصرية على لسان البقرة وهي تكتشف الخدعة إذ ترى زميلتها تدور  
مكانها بعد أن ربطوها هي – مفتحة العينين – في شجرة قريبة، قلت على لسانها :

....

أنا كنت بالفِّ ومشْ داريةٌ، كان لازمٌه إيه؟  
بتشيلوا الغما من على عيني وثقونى إيه؟  
علشان أرتاح؟  
هى دى راحة إني أشوف ده ؟  
لو حتى لبيت الغمى تانى مانا برضه حاشوف.  
وساعتها يا ناس:  
مش حاقدر ألف.  
.... ما هو لازم الواحد ما يشوفشى،  
لو كان حايلف.

(3)

الله يسامحكم، دلوقتي:

لا انا قادرة ارتاح،  
ولا قادرة ألف.  
لا الدمعه يتسزل،  
قولا راضية تجف .

هامش عن "الهم":

أما عن لفظ "الهم"، وهي الكلمة الأقرب للحنن بالعربية دون أن تكون مرادفة، فقد أوحى لي بهامش من إحياءات أخرى لعلها توضح وجهة نظري أيضا على الوجه التالي :

لقد وجدت في لفظ الهم وشكله وحركته ما يستلزم الإشارة إليه هنا كمثال توضيحي ، بادئا بالعلاقة بين ما هو "هم" وما هو "همة" ، فالهم لغة ينتمي أساسا إلى العزم على القيام بأمر ما "همّ بالأمر ولم يفعله"، لكنني لم أرتح للاستسلام هكذا لشروط أنه لم يفعله، اللهم الا إذا أضفنا لفظ "بعد" أى أنه "لم يفعله بعد" - ذلك أتى حين عايشت اللفظ من الممارسة الذاتية والمهنية والإبداعية، رجحت أن ثمة علاقة خليقة بالعناية ما بين "الهم" بمعنى الحزن، والهم بمعنى العزم (على)، وأيضا: الهم بمعنى الشدة (بما يحمل معاني الجدية والصعوبة والقوة جميعا/ "المهمات" من الأمور "الشدائد") - وكل هذا يقربنا أكثر فأكثر من المعاني الإيجابية التي استوحيناها من حركية لفظ "الحزن" فكلاهما (لفظا: الحزن والهم) إنما يؤكدان كيف أن الظاهرة التي تشملهما أو تجمعهما أو يحومان حولها.. ، هي ظاهرة تتحرك لغويا/كيانيا، من المواجهة : إلى الألم: إلى العزم: إلى الشدة، بما يشمل الخسونة والصلابة، وكل ذلك يناقض معنى الكآبة (كما قدمنا) لغة ومصطلحا.

وقد تصبح الصورة أكثر اقتربا فوضوحا إذا استشهدنا بموقف بعض الشعراء القدامى مما هو "هم" بالمعنى الذي رجح عندنا:

يقول ذو الرمة، وهو يصور الهم ضيفا يحضر فنكرمه كما نقرى الضيف، حتى يمضى، يقول ذو الرمة :

وكنت اذا ما الهمُّ ضافَ قريئُهُ موكبة ينضو الرعانَ ذميلها

فالهم هنا يأتي ضيفا، فيكرمه الشاعر ويحسن وفادته، إذ يواكبه صبيرا وتقبلا وتحديا وثقا من أن السير الحثيث، وحمية الحركة، خليقان بأن ينضوا عنه الحزن، وهذا الموقف الواعي هو أرقى بكل مقياس مما أصاب مشاعرنا نتيجة للإغارة الاكتئابية المستوردة، والتي جعلت الهم جسما غريبا ونشازا منفرا ينبغي التخلص منه أو إخفاؤه، نفورا ورفضاً.

أما امرؤ القيس، فهو يلتقى بالهم، أو بأنواع الهموم، فى اختيار وجودى مواجه حين يرخى الليل - كموج البحر - سدوله "على بأنواع الهموم لينتلى"، وهو يلتقى الهموم يهيجها الشوق روادعا "وهاج بى الشوق الهموم الروادع".

ألا يكفى كل هذا، وغيره كثير، أن ينبهنا إلى أن تكون بداياتنا من لغتنا الغائرة فى كياننا - وليس من المصطلح المجلوب إلينا - هى السبيل الصحيح للتعرف على حقيقة مشاعرنا وطبيعة وجودنا .

**خلاصة القول:** إن بين أيدينا كتابا جيدا يفتح لنا آفاقا بلا حصر، ليس فقط لنفهم الفقد ومرارة الحزن والأسى، ولكن لنفهم ونعيش ونعايش وندرك حقيقة الاختلافات الثقافية التى لا تؤثر فقط على ممارستنا الطبية الإكلينيكية، وإنما على تشكيل وعينا، أسوياء ومرضى.

وإنى إذ أشكر المؤلف القدير الذى فتح هذا الملف المهم، بما أورد، وبما يوحى به، أدعو الله أن يوفقه، وكل من يهمله الأمر، أن يواصل عطاءه بلغتنا القادرة، نتعرف من خلالها على هويتنا وثقافتنا، تماما كما نتعرف على أنفسنا، بل وكما ينبغى أن نستشرف منه مستقبلنا، وذلك من خلال هذه الفرصة الإكلينيكية النادرة التى تتاح لنا لنقرأ النص البشرى، المريض والطبيب على حد سواء، كعينة بادية، وليست بالضرورة ممثلة، فنبدع، ونضيف ونساهم من موقعنا فى مسيرة المعرفة واضطراد التطور، فى حوار الندم مع ثقافات ولغات العالم، وذلك لمواجهة سلبيات الجارى عبر العالم أيضا، وهى ليست قليلة، ولا بالمصادفة.

وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر

يحيى الرخاوي  
مصر

### نقاط على الحروف...

لم يكن عميد الأطباء النفسانيين العرب البروفيسور يحيى الرخاوي ليمر مرور الكرام لافتقاده المقاربة الثقافية لفهم ظاهرة الفقد / الموت ( مقدمه الكتاب ) ، حتى عدّ الكتاب " فهرسا موسعا لكتب كثيرة قادمة " ، مضيفا في حقه أنه " كتاب جيد، ظلم عنوانه محتواه، ففاض محتواه عن وعود عنوانه "

ان لم يكن العميد ليغفل عن غياب مقاربة بهذا القدر من الأهمية، كذلك لم يكن لشخصية علمية بحجم المؤلف أن تكتفي في سعيها لفهم "الفقد و مرارة الحزن والأسى" بعرض ما خلصت إليه العلوم الحديثة (الطبية منها و النفسية) و أن يتغافل عن مقاربة هامة و جوهرية تثرى فهمنا لها، انطلاقا من خفيتها الثقافية المختلفة.

و رفعا لكل إلتباس حول هذه " الحلقة المفقودة " ، أشير الى سعي الكاتب بداية ، ان يكون الكتاب مؤلفا مشتركا بيني و بينه، فكان أن عهد إليّ تناول المقاربة الثقافية انطلاقا مما نحن عليه و مما وصلنا... ، مكملا بذلك ما جاء في مقاربتة العلمية، ولما حالت دوني و ذلك معوقات... رأينا أن من الأفضل اصدار الجزء الأول من الكتاب ( حتى لا يتأخر النشر أكثر مما تأخر ) محتويا المقاربة المعرفية العلمية للموضوع على ان يتبعه لاحقا الجزء الثاني محتويا مقاربة الموضوع من منظور ثقافي".

### هل يكتمل الفهم يوما ...

إذا كان اكتمال الفهم اقتراب من اللانهاية... أتى لنا بلوغها و أتى له أن يكتمل ...  
 إن كان الفهم الكامل/المطلق من صفات اللامحدود الذي أودع أسراره خلقه ... أتى للمحدود و بما جهز به من آليات محدودة الوظيفة (العقل، الوعي و الإدراك ) ان يكتمل فهمه.

ان كان فهم الإنسان يرقى بما تراكم لديه من خبرات و معارف و علوم متجددة دوما... أتى له أن يركن الى فهم ثابت يسكن إليه و كل ما يحيط

به يجري ( يتحرك ) لأجل مسمي... و فوق كل ذي علم عليم.

إن كان فهمنا لن يكتمل يوما رغم أنه يرقى بترام الخبرات جيلا بعد جيل ... حسينا شرف السعي لإثراء الفهم بما وصل الى و عينا / لاوعينا، في زمن ما و في مكان ما، بذلك نكون أدينا أمانة الشهادة التي كلفنا بها و قبلناها يوم شهدنا عليها... " و أشهدهم على أنفسهم... قالوا بلى شهدنا...".

في هذا الإطار يدخل سعي المؤلف تأسيس سلسلة إصدارات عنونها بـ " كيف نفهم... " و لا زال يسعي، وما تقدم له اليوم " كيف نفهم... الفقد و مرارة الحزن و الأسى " هو احد ثمار هذا السعي المبارك.

### الفقد/الموت.. المنظومة الفكرية والتداعيات النفسية

شرف لي كتابة كلمة استهلال كمدخل لأحد مؤلفات الأستاذ الدكتور عبد الرحمن إبراهيم، و هذا الشرف يكون مضاعفا إذا قدم للكتاب عميد الطب النفسي العربي البروفيسور يحيى الرخاوي، و مع مضاعفة الشرف تتضاعف المسؤولية، و ماذا عساي أن أضيف لمن قدم له الأستاذ العميد... لذا سأكتفي ببعض الإشارات في الموضوع من المنظور الثقافي علها تكون مدخلا لفصول المقاربتة العلمية المعرفية للكتاب، و هي لا ترقى الى مقدمة ثانية (لا أسمح لنفسي أن أقدم لكتاب حضى بشرف تقديم الرخاوي له).

لجدال ان "الفقد" من سنن الحياة، ليست العمليات الأيضية في الجسم من "هدم/فقد" و "بناء/خلق"، أساس النمو و التطور، إن "الفقد" من سنن الحياة و لا غنى عنه لاستمرارها و تواصلها... ألا تفقد" الخلية الأم" حياتها وهي تنقسم نصفين لتهيها بقدرة خالقها الى خليتين، ليس كل ما في السماوات و الأرض الى فناء / "فقد/موت"، ألا يولد الإنسان و يحمل في ثنايا جيناته برمجة فئاته/فقدته/موته (كل شيء هالك إلا وجهه...)، ان كان قدرنا ان نحيا و "الفقد/الموت" يترصدنا، ألا يكون علينا أن نتعايش معه بوئام و نتقبله باطمئنان كظاهرة طبيعية هي "انتقال مفتوح"، تحفزنا نحو الأفضل استعدادا لمرحلة تليها و ليست "تهاية مغلقة" و عدم خالص ( الرخاوي ) تبعث في الإنسان "الحيرة و الارتباك" لما ينتظره من مصير، فيرتفع مستوى القلق النفسي عنده و يفقده اطمئنانه، محدثة اضطرابات في النفس، التي وان اختلفت مظاهرها يبقى منشأها واحد " الخوف من المصير". إن السعي لفهم اسرار الفقد/الموت بما هي "انتقال مفتوح"، يحفز ما اودع فينا من طاقات للخلافة على الأرض، لأداء رسالة كلفنا بها ، حتى نمر الأرض بالخير و الصلاح، على مدى العمر انطلاقا من بداية الوعي الى أن ترجع النفس "المطمئنة" الى خالقها، و سنحاسب عنها يوما.

إن كان الإتفاق شبه حاصل حول معنى " الفقد / الموت" و ما يؤول اليه من هناك و وتفكك و انحلال لا رجعة فيه ( دنياويا )، إلا أن الإختلاف يبقى

قائما حول مظاهر ارتكاساته النفسية، سواء لدى المرضى الذين أشرفوا على النهاية أو لدى الذين افتقدوا الأهل و الأصدقاء و الأحباب، لما يمثله " الفقد / الموت" ، من صدمة نفسية عندهم، يختلف وقعها باختلاف أهميته المفقود في جهازهم النفسي و "المنظومة الذهنية/ العقائدية" التي يحملونها.

ان كانت تصنيفات الطب النفسي الحديث تحفل بوصف عديد المظاهر السريرية للإضطرابات المتعلقة بالصدمة، بداية من الحالات القلبية بمختلف أنواعها مروراً بالهلع و الكآبة و وصولاً الى الشدة التالية للصدمة، إلا أننا نلاحظ في ممارستنا السريرية أن مثل هذه الإرتكاسات النفسية هي أقل و طئة و انتشاراً في مجتمعاتنا مما نجده في أدبيات الطب النفسي و التي صنفها علماء ينتمون الى ثقافة مختلفة، قد يعود ذلك إلى جهاز قيم و إلى جملة من المفاهيم المختلفة التي استقرت في اعماق وعينا، فكان أن قلصت الى حد بعيد ارتكاسات "الفقد/الموت" على جهازنا النفسي و ساهمت في تخفيض تداعياته المرضية، فكانت هذه "الخلفية الذهنية/العقائدية" المستمدة الى حد كبير من فكر اسلامي رسخ مفهوم الحياة كمحطة نحن فيها عابري سبيل نحو محطة نهائية/دار الإستقرار الأبدي، صمام امان خفض معدل هذه الإضطرابات....، و كل ما يصيب الإنسان في حياته الدنيا يدخل في دائرة إبتلاء كتب عليه وهو نظرة امشاج، فالكل مبتلى ..والكل آتية المصائب.. لحكمة منها، اختبار القدرة على التحكم في الذات و الصبر: "حتي نعلم الصابرين منكم" ..وبشر الصابرين" .."انما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب" .

لقد عرف الإنسان في ظل ثقافة تحمل فكر ( الإيمان بعالم الغيب / الشهادة ): السكينة و الإطمئنان و وتراجعت التداعيات النفسمرضية للـ "الفقد/الموت" ، لكن مع تهميش هذه الثقافة و محاولات قصفها و سيطرة تيار فكري احادي البعد، خف وهج هذه الثقافة و تراجع، فكان أن **افتقدنا معاني عديدة** كانت صمام امان في خفض مستوى الإضطرابات، منها: **الإبتلاء، الصبر، المصابرة، الإضطراب، السكينة ، الإطمئنان، الرحمة، التواضع... لتحل محلها مصطلحات اخرى سيطرت على المشهد النفسي منها: القلق، الحصر، الكآبة، الهلع، الرهاب... ساهم في انتشارها "خلفية ذهنية/ايديولوجية" معادية للإيمان، أحادية البعد، اسس لها فلاسفة عصر النهضة عند ثورتهم على انحرافات الكنيسة، كانت وصلتنا بعد انحسار الإستعمار العسكري و حل محله اخر مقنع أخيب و أعتى، حتى عُدَّ **موصوفاً بالوصمة** كل من تجاسر و أعلن إيمانه و رفضه الفكر المادي الإحادي، مع ما يصحبه من ابتزاز نفسي، فهو تارة رجعي، متخلف و اخري ظلامي، عدو النور، إلخ... إن تغيب الإيمان ببعديه ( الشهادة/الغيب) و ما أتبعه من تعسف فكري غيب ملكة الإيمان بالغيب و التي تعد من أهم ملكات الوعي الإنساني، ليكون هذا التوجه الفكري كارثياً على انسان عصرنا.. واني أعتقد أنه لاخلاص له مما تردى فيه الإنسان، إلا **بإعادة قراءة****

النص البشري من خلال منظومة فكرية تستوعب كل قدرات الوعي الإنساني التي جهّز بها، تأسيسا لتيار فكري ثنائي البعد، يستوعب ما حققته الإيديولوجيا المادية احادية البعد و يتجاوزها الى الأخذ بالإعتبار أهمية البعد الثاني / بعدي الغيب، علنا نسترجع "سكينة" افتقدناها ونتجاوز ما جناه علينا تيار مادي/أحادي البعد ، جرفنا ردحا من الزمن الى ما آل اليه انسان اليوم، فكان الخلفية الفكرية لجل العلوم الإنسانية (و لم تكن العلوم النفسية بمنأى عن هذه الهيمنة)، أن أوان أفوله بعدما اشقى جبلا كثيرا من العالمين، في ظل انسحابنا من حلبة الصراع العلمي.

جمال التركي  
تونس

الكتاب الإلكتروني لشبكة العلوم النفسية العربية: العدد 19



---

إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2011

## أ.د. عبد الرحمن إبراهيم

- الاختصاص : الطب النفسي
- الشهادات العلمية
- اجازة دكتور في الطب البشري.
- Ph.D في الطب النفسي.
- دكتوراه بدرجة استاذ في علوم الطب النفسي.
- دبلوم في التحليل النفسي.
- دبلوم في المعالجة النفسية.



▪ **الممارسات المهنية:** استاذ محاضر وزائر في عدد من الجامعات العربية والأوروبية، مستشارونائب رئيس مركز الدراسات والأبحاث النفسية العربية الروسية، مستشار معهد بافلوف للأبحاث الفيزيولوجية السلوكية، مستشار مناهج الطب النفسي للعديد من الجامعات والأكاديميات العربية والأجنبية، مستشار أكاديمية I.N.B.2 للعلوم النفسية، مشرف على تطبيق برامج المعالجة النفسية للعديد من المشافي والمستوصفات والمراكز الصحية، مستشار لمجموعة مشافي خاصة في ألمانيا...

- **المؤلفات النفسية:** فكرة وجيزة عن (1.اضطرابات الشخصية، 2. الفحص النفسي والعقلي، 3.فحص الحالة العقلية الحاضرة، 4. الاكتئاب، 5. معالجة الاكتئاب، 6. الفصامي، 7.معالجة الفصامي، 8. المعالجة النفسية، 9. أسباب الاضطرابات النفسية، 10.الآليات النفسية، 11. الأدوية النفسية، 12.الوسواس القهري، 13. القلق، 14. الاسترخاء، 15. الاضطرابات التوهمية)، 16.المغنى في الطب النفسي، 17.المغنى في علم السلوك، 18.كيف نفهم الطفل والمراهق. 19. الطلاق، 20. ميليس في قفص التحليل النفسي (باللغات: العربية، الفرنسية، الانكليزية، الروسية، والألمانية)، 21. جوانب هامة من تطور شخصية الطفل، 22. الاكتئاب.. دليل الطبيب والمريض والأسرة، 23. اضاءات حول الفصام والاكتئاب، 24. كيف نفهم الفقد.. ومرارة الحزن والأسى؟..

### ▪ المؤلفات الأدبية:

- مجموعة حوار
- مجموعة قصص قصيرة

